المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية – جامعـة سيدي بلـعباس
ISNN : 2170-0060 EISSN : 2602-523X
المجلـد 14 -- العدد 02 -- ديسمبر 2022 ص 380 - 413

أزمة الكوفيد 19 في تونس وأنماط الفعل الإجتماعي

The covid 19 crisis in Tunisia and the types of social action

حافظ المداني ، أستاذ مساعد للتعليم العالي (hafedh.madani@yahoo.fr)	علم الاجتماع	كليّة العلوم الإنسانيّة والإجتماعيّة بتونس، جامعة تونس / تونس

DOI :

الإرسال: 2022/10/24 **القبول**: 2022/11/20 **النشر**: 2022/12/22

ملخص:

منذ الأشهر الأولى لانتشار عدوى الكوفيد 19، سرعان ما انتقلت الجائحة من حدث فيروسي الى أرضية ملائمة لعدّة بحوث في مجال العلوم الانسانية.؛ وهذا العمل مساهمة سوسيولوجية اشتغلنا فيه على المناخ الاجتماعي المصاحب للجائحة؛ مفترضين أن الأفراد لا يتأثرون صحيا فحسب، وانما يتفاعلون مع الحدث ويُحمّلونه معاني ملائمة لتجربتهم ويؤثرون في مجرياته بتمثلاتهم وأقوالهم وأفعالهم وبمواقفهم تجاه التهديدات، وهو ما قادنا الى الاقرار بأن الجائحة في جانب منها هي بناء اجتماعي مرتبطة بالكيفية التي يتصرفون بها الأفراد أثناء الأزمات وبالكيفية التي يشكلون بها حياتهم أثناء تفاعلهم مع الأزمة؛ فالجائحة حسب تقديرنا ليست مجرد حدث مَرضِي وغير وظيفي في النسق الاجتماعي، وانما سننظر اليها باعتبارها "قيمة" قادرة على تحريك المجتمع وفك جزء من عطالته وإظهار ما فيه من تناقضات ومن ترتيب لقيمه الاجتماعية وفق معيار الصحة العامة والأمن الاجتماعي؛ فالأزمات قادرة أن تستقطب الفاعلين حول قيم مشتركة صريحة أو ضمنية لتفرز أنماطا من الأفعال استنادا لمصالحهم وقيمهم ومعتقداتهم وعاداتهم .

لقد سمحت لنا المقاربة التفهمية بالخروج بنماذج من الأفعال الاجتماعية الأكثر بروزا وتأثيرا في فترة الجائحة، وهي حسب اعتقادنا ليست مجرد بناءات ذهنية، وانما هي معبّرة على الجغرافية الاجتماعية للمجتمع التونسي بما يتضمنه من قيم وقوى اجتماعية متناقضة.

كلمات مفتاحية: جائحة الكوفيد 19؛ الأزمة؛ التفاعل؛ الفعل الاجتماعي؛ الاستقطاب؛ القيم.

Abstract:

The covid 19 pandemic has converted, as soon as it spread, from a subject that concerns virology into a pertinent field of study for human sciences. This work is, in fact, a sociological contribution that focuses on the social atmosphere resulting from the pandemic. We suppose basically that covid19 does not only affect human health but creates social dynamics because individuals interact with the events around them and attribute meaning to their experiences. They influence, therefore, the way events go by with their representations, words, actions and positions. What leads us to say that the pandemic, in part, is a social construction that reveals individual behaviors

المؤلف المراسل: حافظ المداني البريد الإلكتروني: hafedh.madani@yahoo.fr

during crises. Thus, the pandemic, from our point of view, is not only a pathological and dysfunctional event in the social system but rather "a value" that is able to mobilize society, unblock partially its inertia and unveil its contradictions. A "value" that may reorder social values according to the public health and social security. Crises can indeed gather and polarize actors with explicit or implicit common interests and values and produce specific types of actions in response to their interests, beliefs and traditions.

The use of the comprehensive approach allowed us, accordingly, to know the most practiced and dominant types of actions during the covid19 period. We consider, therefore, that these types of actions are not only ideal types but a pattern that reflects the social geography of Tunisian society with its contradictory social values and powers.

Keywords : covid 19 pandemic; crisis ; interaction ; social action ; polarization- value.

مقدمة

تعتبر الأزمات بما فيها الأوبئة والجوائح، لحظات حاسمة في تاريخ المجتمعات[1]؛ وقد تتحول في أغلب الأحيان الى عنصر مؤثر في الحياة الاجتماعية ومكوّن للثقافة المحلية ولنمط الحياة اليومية للشعوب[2]. ولعل من مفارقات الأزمات مثلما هو الشأن اليوم مع جائحة الكوفيد 19 (كورونا)، أنها مشكلة بيو-طبية بالأساس ومعالجتها الحاسمة لا تكون إلا طبيا، وهذا أمر لا شك فيه ولا اختلاف. ولكن ما يجب التأكيد عليه أن الجائحة وان كانت تحمل قوّتها الهدامة في ذاتها، إلا أن أسبابها ومقدماتها اجتماعية ومرتبطة بالسلوك اليومي للإنسان الاجتماعي. كما أن مآلاتها وآثارها كانت اجتماعية واقتصادية وسياسية...وفي الفترة الزمنية التي بدأت فيها الجائحة بالانتشار في تونس، سرعان ما دخل أفراد المجتمع في حالة من الخوف المعمم واللايقين والغموض المرتبط بنطاق اتساع التهديد وحدود نجاعة وسائل معالجته ونتائجه الحالية والمرتقبة؛ ثم بدأت معها أنماط الفعل الاجتماعي الكامنة في الظهور والبروز بشكل أكثر وضوحا وبدأ معها الفاعلون

[1] . كانت بعض المجتمعات مثلما هو الشأن في تونس تؤرّخ للأحداث والمناسبات بفترة الأزمات (وناس، 2010: ص 74-75) مثل الأوبئة والأمراض والحروب والقحط وموجة اكتساح بعض الحشرات للأراضي الزراعية.

[2] . المنطوق الشعبي التونسي يؤرخ للمناسبات بقول "عام الجراد – عام الكوليرا- عام الرّوز..." كما عبرت بعض الشتائم على الشدّة التي تحدثها الكوارث في الانسان مثل قول "التلافْ والريح الزفزاف- الفْنَا والكُرَاذْ- الْوُبَا والكُرَاذْ" (نوع من الدعاء بالشر على الآخر بمعنى أن يصاب الشخص بالوباء ويحمل للدفن على حاملة "الكريطة" تسحب بدابة حمار أو ما شابه)...

بالاصطفاف بأشكال مختلفة وإظهار ما يكمن فيهم من ميل للخلاص الفردي وما يحتكمون عليه من قيم ومن استعدادات ومواهب فنية ومن نزعات عقدية طقوسية ساهمت في تفاعلها على اعادة بناء أحداث الجائحة بما يتوافق مع ثقافة المجتمع ومع درجة وعيه بالمخاطر. هذا التفاعل بين أفراد المجتمع ومؤسساته تجاه الجائحة سننظر اليه على كونه أرضية ملائمة للبحث السوسيولوجي، وذلك من جهة البحث في كيفية تفاعل المجتمع مع لحظات الشدّة على مستوى السلوك الاجتماعي للأفراد تجاه بعضهم البعض وتجاه المؤسسات والاجراءات المتخذة في شأن الجائحة؛ فقد تعددت واختلفت الأحداث والأنشطة في تونس خلال فترة الجائحة[1]، كما برزت أنشطة أخرى فردية وجماعية بشكل ملفت رغم وجودها قبل ذلك بشكل باهت وغير ملفت للانتباه اعلاميا[2] ، وهي أحداث وأنشطة قد أثثت مناخ الجائحة ومنحته بعدا اجتماعيا واستطاعت أن تستقطب الفاعلين في أشكال متباينة من الأفعال والأنشطة الاجتماعية. ولعل هذا الزخم من الأحداث والأنشطة كان مبررا لنا لطرح الاشكالية التي سنستند فيها على مسلمة عامة تقرّ بأن الجائحة ليست مجرد حدث حامل للمخاطر، وانما هي "قيمة فاعلة" ساهمت في إظهار وفرز تناقضات الفاعلين الاجتماعيين الأكثر تأثيرا في الحياة اليومية .

فإلى أي مدى ساعد تفاعل أفراد المجتمع مع الجائحة على اظهار تناقضات المجتمع وفرز الفاعلين الاجتماعيين واستقطابهم ضمن أشكال متباينة من الأنشطة والأفعال الاجتماعية استنادا لمنطلقات الأفراد ودوافعهم الأولى التي يؤمنون بها ويقدمونها عند مواجهة الأزمات؟

انطلاقا من هذه الاشكالية قمنا بصياغة الفرضيات والأسئلة التوجيهية التالية :

– شكّل مناخ الجائحة أرضية ملائمة لتحريك الأنشطة الربحية واستقطاب الفاعلين الأكثر استعدادا لملاحقة مصالحهم ومنافعهم المباشرة.

[1] . اجراءات الحظر والحجر الصحي- اعلان حالة الطوارئ- نفاذ المواد الاستهلاكية والمعقمة وارتفاع أسعارها بشكل مفاجئ- تغير اجراءات التعامل داخل المؤسسات- ارتفاع سقف الاحتكار- غلق المساجد وتعليق الصلوات والاحتفالات الجماعية- اجبارية وضع الكمامات...

[2] . أعمال تطوعية منظمة وفردية- مبادرات وابتكارات شبابية- أعمال فنية ملتزمة- أنشطة اعلامية موازية...

– ساعدت الجائحة على استقطاب الفاعلين الأكثر ايمانا بعلاقات التضامن والمبادرات الاجتماعية المدنية لتعيد صياغتها ضمن أشكال مختلفة من الأنشطة الاجتماعية الملائمة لمضمون القيم التي يؤمنون بها.

فماهي الخصائص المميزة لمناخ الجائحة؟

ماهي أشكال الأنشطة الاجتماعية الأساسية التي أظهرتها الجائحة بتناقضاتها؟

من هم الفاعلين الأكثر تأثيرا على نمط الحياة اليومية أثناء الجائحة؟

هل تحركت هذه التناقضات بشكل ملائم مع مقتضيات الوقاية من العدوى، أم أنها كانت معطلة لإجراءات حفظ الصحة وساعدت على مزيد انتشار العدوى؟

ان هدفنا من هذا العمل هو فهم أهم التعبيرات السلوكية التي برزت في فترة الجائحة، ثم العمل على تصنيفها في نماذج معبرة على مضمون القيم التي يحملها الفاعلون ويؤمنون بها ويقدمونها كمبررات لأفعالهم وأنشطتهم.

ا . المعالجة المنهجية

هذا العمل البحثي، محاولة لنقل التجربة التونسية أثناء الموجة الأولى والثانية لجائحة الكوفيد 19 إلى حدود اللحظة التي كتبنا فيها هذا المقال، وهي محاولة نأمل منها أن تكون اضافة لما كتب من مقالات وما أنجز من مداخلات في تونس وفي العالم[1]؛ وسنحرص في هذا العمل على توظيف البعض مما ورد في الأعمال السابقة من معطيات ومفاهيم، مع تجنب تكرار مناهجها وما ورد فيها من مضامين دون الاستغناء عما عرضته من أمثلة ميدانية[2].

[1] . تعددت المقالات والكتب التي دوّنت أحداث الجوائح وفصلت القول في الأوبئة والأمراض المعدية، فكان منها ما عرض بشكل نظري وبسرد تاريخي للمتغيرات البيئية والاجتماعية المتسببة في الأمراض بشكل عام (المشهداني، 2012)، ومنها ما كتب في شأن جائحة "كورونا"، بنقل الأحداث واليوميات والتوثيق لها وفقا لتتابعها الزمني، (شراك، 2020)، وكتابات أخرى خيرت التوثيق لشهادات بعض الفئات الاجتماعية تجاه الجائحة، من أجل نقل مشاغلها ووضعها الاجتماعي وانتظاراتها (حنين ، أفريل 2020). وبتتابع الأشهر بدأت المجلات العلمية تخصص أعدادا خاصة حول الجائحة من أجل الاحاطة بجوانبها وتداعياتها المختلفة، ونذكر على سبيل المثال "مجلّة الديموقراطيّة" الصادرة على مؤسسة الأهرام.

[2] . نظمت مراكز البحوث والدراسات في العالم وفي تونس ندوات كاملة حول الجائحة (على سبيل الذكر ما نظمه المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات carep تحت عنوان " أن نفكر في زمن الكورونا" وتوزعت على ثلاثة عناوين كبرى يمكن ذكرها على التوالي: كيف عاش التونسيون وباء كورونا والحجر الصحي(المركز العربي للأبحاث و

لذلك سيكون جهدنا في هذا العمل موجها منهجيا لنمذجة السلوكيات التي برزت بشكل نموذجي في الموجة الأولى والثانية من الجائحة وذلك في علاقة بالدوافع والمنطلقات القيمية التي جمّعت الأفراد في "أنماط" للفعل المعبّرة في وجه من وجوهها على شكل "الجغرافيا الاجتماعية" للمجتمع التونسي، وهي جغرافيا لم تكشفها الأرقام والإحصائيات، بقدر ما كشفتها التعبيرات والتصريحات والسلوكيات اليومية، التي عبّرت عن نفسها، ببداهة الخائف، وبانتهازية التاجر، وبإنسانية المتطوع، وبخيال المبدع، وباندفاع "المؤمن الصادق"، وهي تصنيفات منهجية فحسب لأنه على مستوى الممارسة يمكن أن تحضر منفصلة عند البعض ويمكن أن تتداخل عند البعض الآخر.

كان منهجنا منهجا كيفيا، وظّفنا فيه تقنيات المعايشة، مثل الملاحظة المباشرة والملاحظة بالمشاركة والمحادثة وتحليل الخطاب الإعلامي والخطاب العامي، من أجل ملامسة أفعال الناس ومعايشة الأحداث ورصد مختلف التعبيرات في تلقائيتها وانسيابها الطبيعي في مناخ الخوف والشعور بالهشاشة.

كما أن هذا العمل لم يتوجه إلى فئة بعينها لدراستها وفقا لمنهج المتغيرات السببية الكلاسيكية، وانما قمنا بالاشتغال على أرضية الأحداث المتناثرة والفوضوية، من أجل إعادة تنظيمها ونمذجتها لكي نحمّلها معنى سوسيولوجيا، وقد حرصنا على استحضار هذه الأحداث سواء من خلال الرصد والملاحظة الميدانية المباشرة، أو من خلال ما صدر عن وسائل الإعلام الرسمية وغير الرسمية من تصريحات ومداولات وحوارات وومضات اشهارية، أو من خلال التقارير الصحية والأمنية والاقتصادية حول الوباء وحول الأحداث المرتبطة به.

دراسة السياسات، 2020) / الأنظمة الصحية، الرعاية الاجتماعية والعدالة الصحية (المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، 2020) / المجتمع المدني في مواجهة الجائحة وأسئلة التضامن (المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، 2020) حيث طرحت عدة مسائل منها ما هو تقني واجرائي تناول مسألة الرعاية الصحية والتغطية الاجتماعية والاستهلاك في فترة الجائحة، ومنها ما هو نفسي وفلسفي، ومنها ما هو منخرط في صلب علم الاجتماع على غرار مداخلة منير السعيداني حول دور النخب وموقعها تجاه الجائحة وما طرحه في أعمال أخرى حول مفهوم مجتمع الجائحة الذي سنوظف بعضا من معانيه وخصائصه كمحاولة لفهم طبيعة المرحلة التي نمرّ بها اليوم.

وإذا كانت الفترة الزمنية التي اشتغلنا عليها محدودة، وامتدت من شهر مارس 2020 إلى نهاية شهر ديسمبر 2021، وهي تقريبا فترتي الموجة الأولى والثانية من جائحة كوفيد 19، فإن الإطار المكاني لم يكن محدودا، حيث أن الأحداث التي اشتغلنا عليها كانت متنوعة ومتفرقة على عديد المناطق في تونس العاصمة وضواحيها والتي تسنى لنا بلوغها والتحرك فيها.

II . النشاط الاجتماعي والمسؤولية الانسانية و سوسيولوجيا الأزمة

ارتكز "فيبر" في فهمه للوقائع الاجتماعية على مفهوم "النشاط الاجتماعي"، كمحاولة لفهم كيف يعيش الناس في وسطهم الاجتماعي (فروند ، 1998 : ص 45) ، وكيف يتفاعلون مع بعضهم البعض بفعل تعرضهم لوضعيات صعبة وكيف يواجهون هذه الوضعيات أو يتسببون في انتاجها. واذا خصصنا القول في المخاطر والأزمات؛ فيجب فهمها في سياقها الاجتماعي، لأنها تتعلق أساسا بأشكال الوعي بها وبكيفية التفاعل معها وإدارتها من قبل مؤسسات الدولة ومن قبل أفراد المجتمع. في هذا الاطار أشار منير السعيداني[1] (السعيداني، 2020 : ص3-5) الى أن الجوائح هي بالضرورة بناءات اجتماعية، وذلك كونها تبنى في خضم وفي سياق التفاعل الاجتماعي الذي يُسْند للأفعال والأنشطة والأقوال والأحداث الاجتماعية معاني ودلالات" (السعيداني، 2020 : ص3) ؛ فالجوائح مرتبطة "بمختلف الممارسات الاجتماعية ذات المسؤولية في احلالها وبردود أفراد المجتمع ومجموعاته وجماعاته عليها وبكيفيات التصرف فيها صحيا وتناولها اعلاميا، حيث أن وسائل الاعلام الحديثة ساعدت على تعميق الوعي بمخاطر الجائحة ونشر تداعياتها وتضخيمها، بشكل لم يعد الفرد قادرا على تجاهلها. والمخاطر مرتبطة في جزء منها بتمثلات

[1] . أشار لمسألة التمدد العمراني السريع والمكثف وظهور المدن المليونية القائمة على الأنشطة الاستخراجية والتحويلية الصناعية على حساب المقدرات البيئية الطبيعية، والتي في تفاعلها قد ساعدت على اختلاط الحياة البرية مع الحياة البشرية بشكل غير سوي وناقل للأمراض. وقد ساعد ذلك تطور وسائل نقل الأشخاص والبضائع على الصعيد العالمي. (Peretti-Watel &Châteauneuf-Malclès, 2020)

الناس وبمواقفهم تجاه التهديدات وبارادتهم في التحكم فيها[1]، ومرتبطة بالكيفية التي يتصرفون بها أثناء الأزمات وبالكيفية التي يشكلون بها حياتهم أثناء تفاعلهم مع الأزمة. وهذا التفاعل غالبا لا يتخذ اتجاها واحدا ومعروفا مسبقا، وانما يتشكل دائما أثناء الأزمات (Peretti-Watel &Châteauneuf-Malclès, 2020). وتذهب الأعمال التأويلية لادغار موران Edgar Morin الى أن الوعي بالأزمة (Morin, 1994 :pp175-187)، مثلما هو الشأن مع جائحة الكوفيد 19 ، يعتبر شرطا ولحظة منهجية لإمكانية تأسيس علما بالأزمة Crisologie وهي إمكانية قد تطورت ووجدت حظها ومبررها في ظل التطورات الحاصلة اليوم سواء على مستوى مخاطر الحروب البيو-كيمياوية الفتاكة وتطور بحوث أسلحة الدمار الشامل والتهديدات النووية، أو على مستوى اتساع رقعة الكوارث البيئية والانتشار السريع للجوائح.

في هذا السياق يعتبر "أورليخ باك" ULRICH BECK أن تهديدات اليوم المرتبطة بمخاطر المجتمع الحديث هي تهديدات قادرة أن تفلت من ادراكنا المباشر لها، لأنها مخاطر لا ترى ولا تسمع ولا نشعر بها (بيك ، 2009: ص54). وهذا هو التناقض الذي يعيشه مجتمع المخاطر، حيث أن التقدم العلمي والتقني يجعل من المجتمعات أكثر قدرة على التحكم والسيطرة على المخاطر؛ ولكنها دائمة الانتاج لمخاطر جديدة متولدة من آليات ووسائل التحكم ذاتها؛ وهذه التطورات والأحداث لا يمكن التعامل معها باعتبارها فواصل عابرة في تاريخ الإنسانية وإنما هي معضلات حقيقية حاملة لقوتها الهدامة القادرة على تغيير روتينية الحياة اليومية والتأثير في السياسات العالمية.

ان الرهان الابستيمولوجي الذي طرحه ادغار موران هو كيف يمكن الانتقال من الأزمة باعتبارها حدثا الى "الأزمة" باعتبارها مفهوما، وهي مسألة تفترض قبل كل شيء التأسيس

[1] . يعتبر الوعي بالمخاطر وعيا اجتماعيا اقترن تاريخيا بمسألة تأمين الحياة.. هذا الوعي الذي تبلور في القرن 19 بتأمين مخاطر الابحار، ثم تطور أكثر في القرن 20 بظهور مؤسسات التأمين؛ ومنها بدأت تظهر خصائص المسؤولية القائمة على نوع من العقد الاجتماعي بين الدولة وأفراد المجتمع (Ewald, 1996 : pp10-18).

لها بتجاوز المعاني البسيطة لمصطلح الأزمة التي تشير الى أن "كل شيء سيء أو أن الأشياء لا تعمل على نحو جيد" .

ان التأسيس العلمي "لعلم الأزمة" يفترض أن نتعامل مع"الأزمة" بمعاني أكثر عمقا وديناميكية، أي أن نتعامل مع "الظواهر" في سياقها الفينومينولوجي (Morin, 1968, p5) باعتبارها ظواهر معيشية مظهرة للمعيش اليومي بكل ما يخفيه من تقاطعات وتشويش وفوضى وأحداث هدامة وعرضية.

وعلى عكس المعانى البسيطة والمعاني الكلاسيكية، تستحضر الأزمة اليوم وخاصة بعد تطور العلوم البيولوجية، معنى اللايقين، لأن كل لحظة أزمة قد تحمل معها معطيات غير معلومة وغير محددة سلفا؛ وهو الأمر الذي يؤدي الى خفض امكانيات التوقع. ولكن مقابل ذلك تسمح لحظة الأزمة بظهور امكانيات متعددة للفعل وللقدرة على اتخاذ القرارات الحاسمة المؤدية الى التغيير والتحول.

ان لحظة الأزمة هي لحظة التردد والحسم في آن، كما أنها لحظة تراجع للثوابت والمحددات الصارمة للنسق مثل العادات والتقاليد والممارسات اليومية الروتينية، ولكن من جهة أخرى هذا التراجع من شأنه أن يحمل معه تضخيما للعادات وتطورا في المعرفة بوضعيات الأزمة ذاتها.

ان التأسيس الابستيمولوجي لمفهوم الأزمة، يستحضر بالضرورة مكوناتها في بداهتها وتلقائيتها، مثل الاضطراب والفوضى واللايقين والعطالة، ولكنها مكونات غير ثابتة وغير نهائية، لأنها سرعان ما تنتج وضعيات جديدة عبّر عنها موران بمفهوم "فك العطالة"، باعتبارها وضعيات فعل وحركة شاملة قادرة أن تلمس كل مستويات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفنية والمعرفية. وبالتالي فالأزمة في وجه من وجوهها هي التي تسمح بالفعل والتغيير الذي يمكن أن يكون بالتطور أو بالتراجع والتقهقر؛ ويمكن أن يتخذ استنادا للمقاربة الفيبرية، أشكالا عقلانية محسوبة ونفعية و تجمع الأنشطة الاقتصادية والسياسية وكل ما هو مقترن بالربح والمنفعة الفردية ، وأخرى غير عقلانية أو هي مضادة للعقلانية أو لا تحمل الخصائص النموذجية للفعل العقلاني غائيا، مثل الأنشطة الفنية

أو المعتقدات أو السلوكيات التي جرت مجرى العادة والتقاليد أو تلك القائمة على قوّة العواطف والانفعالات (فيبر ، 2011 : ص55).

في هذا السياق ميّز فيبر نموذجيا بين مفهوم النشاط وبين مفهوم النشاط الاجتماعي (Weber, 1995, p28) أو الفعل الاجتماعي[1]. القائم على علاقات التبادل والتفاعل الحامل للمعنى الذاتي والذي يترك على الدوام مكانا للصدفة وللقرارات الفردية للأفراد الذين يتصرفون بشكل منفصل أو متداخل، تبعا للقيم والدوافع والحسابات العقلانية، وبالتالي فتوضيح الاجتماعي يعني التنبه الى الطريقة التي يوجه وفقها الناس أفعالهم (كابان ودورتيه، 2010 : ص47)؛ ولا يمكن فهم هذه الأفعال إلا في سياق تاريخي معين أو في سياق وضعيات وأحداث بعينها وضمن ثقافة معينة مرتبطة بمجموعة من القيم المتعارف عليها والتي تشكل في تفاعلها ما عبّر عنه فيبر ب"نظام حياة" محمل بالرموز والمعاني (فلوري، 2008 : ص38).

III . نماذج من تناقض الأفعال الاجتماعية في تونس في فترة جائحة "الكورونا"

إن القيم والمعايير الضمنية التي تنتظم وفقها تصرفات الأفراد والجماعات، غالبا ما تعبّر عن نفسها في أوقات الأزمات والنزاعات (كابان ودورتيه 2010 : ص341). وعندما نتحدث على أنماط الأفعال الاجتماعية المتشكلة اجتماعيا أثناء ظهور الجوائح، فان هذا يعني أن الأفراد يجتمعون حول قيم متقاربة ويستقطبون بعضهم استنادا لاتفاقات ضمنية أو صريحة، دون الاقرار بأنها حاملة دائما لقيم مثمنة اجتماعيا وأخلاقيا.

وحسب ماكس فيبر،اذا كانت المنطلقات والدوافع مقترنة أساسا بالفرد، فإن الاشتراك في البعض منها من قبل عدد من الأفراد من شأنه أن يجعل منهم مجموعة متوافقة وتحمل

[1] . مفهوم النشاط في معناه العام هو مجمل سلوك الأفراد الحاملة للمعنى الذاتي. أما مفهوم النشاط الاجتماعي أو الفعل الاجتماعي، فهو الفعل الذي حسب المعنى المقصود من الفرد، يكون موجها للآخرين ويأخذ بعين الاعتبار خياراتهم وأفعالهم والمعاني الذاتية. (فياض، 2018 : ص26)، لذلك يعتبر السلوك بلا معنى ويظل مبهما بالنسبة الينا ما دمنا لا نفهم ارتباطه المعبّر بالأشياء وبالوسائل وبالغايات (فروند، 1998 : ص51)

شيئا من التناغم في منطلقاتها ودوافعها ووسائلها ومقاصدها، يمكن وصفها بالحقل (فلوري، ، 2008 : ص67).

إنّ الاتفاقات الدائمة أو المؤقتة التي تنشأ بين الفاعلين الاجتماعيين من أجل اتمام نشاط ما، غالبا ما تكون من أنماط مختلفة، وأحيانا متناقضة، وهو ما يسمح بانفجارها لحظة الأزمات، مثلما هو الشأن اليوم مع أزمة جائحة "كورونا" التي أربكت روتينية العلاقات المتشكلة تاريخيا، ثم أعادت تنظيمها من جديد بما يتوافق مع خصوصية ما يؤمن به الأفراد وما يتطلعون اليه وما تعودوا عليه وما يرون فيه مصالحهم المباشرة.

1 . الفردانية النفعية ونموذج العلاقات التجارية

في قراءة لأعمال آدام سميث الكلاسيكية حول اقتصاد السوق، يمكن الوقوف عند أهم ملامح طبيعة العلاقات النفعية، حيث تتحدد الروابط الاجتماعية بالسعي الدائم والمشترك لاكتساب واحتكار الثروات النادرة، وتعتمد "عظمة" الأفراد أو شعورهم بالأهمية، بقدرتهم على تأمين امتلاك الثروات التي يسعى الآخرون كذلك لامتلاكها وتظهر كفاءتهم الأساسية في انتهاز الفرص (سميث، 2007 : صص 23 - 44) .

لقد مثلت جائحة "كورونا" اختبارا حقيقيا للمجتمع التونسي ولجزء من طبيعة شخصيته القاعدية، التي تبلورت منذ عقود في اتجاه تعظيم قيمة الفردانية النفعية والانتهازية والبحث على الحلول الفردية (وناس، 2010 : ص104-105) ، ويكفي أن نقف عند بعض الأحداث المعبرة، حتى ندرك خطورة ما أصبح يعيشه المجتمع التونسي من مخاطر التجويع المعمم، مقابل الإثراء الفاحش لفئات أخرى تمكنت من مسالك التخزين والتوزيع، وأظهرت سلوكيات متناقضة مع ما تتطلبه الأزمة من مقتضيات التضامن والتطوع وتحمل المسؤولية وإنكار الذات.

من أبرز مظاهر هشاشة منظومة قيم العيش المشترك للمجتمع التونسي، هو سلوك "الاحتكار"[1]، الذي تحول إلى آلية من آليات الصعود والإثراء السريع. وإذا كان سلوك

[1] . تمكنت حملة واحدة للفرق الاقتصادية والأمنية، (زووم تونيزيا، 2020) من حجز 32.1 طن من الطحين المدعم و 1.5 طن من السميد و01 طن من مادة القارص المجمد و270 كلغ من النخالة و2700 بيضة و1500 قفازا. ومن

الاحتكار ليس بالغريب على كبار التجار وصغارهم؛ والمجتمع التونسي تقريبا قد طبّع معه في عديد المناسبات، إلا أن تأثيرات هذا السلوك على إمكانية التحكم في المخاطر الوبائية وغيرها من المخاطر، كانت كارثية، باعتبار ما ولده عند التونسيين من خوف وهواجس، تتعلق بالجوع والتجويع المعمم والممنهج وبفقدان القدرة على مزاحمة عديد الفئات الاجتماعية النافذة، أو التي تملك العُصْبة الكافية لإفتكاك نصيبها من المواد الوقائية والمواد الغذائية بممارسة العنف والسطو المباشر على الشاحنات (بن جازية ، 2020) ، وهو الأمر الذي أعطى مبررا للتونسيين رغم حظر التجول، للنزول يوميا إلى الأسواق والمحلات التجارية لكي يتزودوا بما أمكن من المواد؛ وان لزم ذلك على مراحل، لأن المزودين قد حددوا كمية معينة لكل فرد وفرضوا آلية البيع المشروط للمواد الغذائية والمطهرة، لتجد الدولة نفسها أمام وضعيتين يصعب التعامل معها، فإما الحظر مقابل خطر التجويع؛ وإما التساهل مقابل خطر العدوى.

كل شيء في فترة الحظر الصحي قابل للاستهلاك أو موجه للوقاية، أصبح موضوعا للاحتكار والمضاربة، ليلمس حتى القطاعات الأكثر حساسية وحرصا على سلامة المواطنين، ألا وهو قطاع الصيدلة. فالأدوية الموجهة لخفض الحرارة والكحول الطبية ومواد التعقيم والوقاية، كلها أصبحت مفقودة وتباع بثلاثة وأربعة أضعاف سعرها الحقيقي، رغم أن بعض المسؤولين في مجال الصحة والصيدلة (بالريانة ، 2020) حاولوا اظهار وجه العدالة الاجتماعية الذي فرضته الجائحة في مجال الصحة والتمتع بالأدوية ومواد التعقيم والوقاية. ولعل هذا التناقض بين التصريحات الرسمية وبين المعيش الفعلي، قد أنتج حالة من عدم الثقة المجتمعية وسمح فيما بعد بظهور "صراع رأي" بين الخبراء من ناحية وبين العقديين من ناحية ثانية الذين كان لهم تأثيرا واضحا على عامة الناس.

جهة أخرى أذنت النيابة العمومية بالمحكمة الابتدائية بالكاف يوم 7 أفريل 2020 بالاحتفاظ بمعتمد قلعة سنان مع شخص آخر، حيث وجّهت لهما تهمة الاحتكار واستغلال النفوذ. وفي نفس السياق مثل عمدة إحدى المناطق من معتمدية مكثر بولاية سليانة أمام القضاء على خلفية استغلال النفوذ والتواطؤ مع أطراف تتولى احتكار وتخزين مادة السميد المدعم وبيعه بأسعار غير قانونية (الصالحي، 2020).

المسألة الثانية التي رصدناها بالملاحظة المباشرة ومعايشة الأحداث، فهي التي تتعلق بسلوك المؤسسات ذات الصبغة الخدماتية مثل البريد والبنوك، التي جسدت قيم الأنانية والبراغماتية في أقصى مظاهرها..."أنا وبعدي الطوفان"[1].

يكفي الوقوف عند أبواب إحدى المؤسسات الخدماتية حتى نلاحظ الحشود والأجساد المتراصة، وفي أفضل الحالات نلاحظ طابورا شكليا لا يستجيب لإجراءات التباعد الجسدي وحفظ المسافة الاجتماعية مثلما حددها "ادوارد تى هول" بمترين. وبحجة الخوف من العدوى انسحبت المؤسسات من دورها التنظيمي وتوجيه حرفائها، حيث لاحظنا في عديد المؤسسات الخدماتية غياب عامل يتولى تنظيم الطوابير وتذكير الناس بإجراءات التباعد الجسدي والاكتفاء فقط بمنع الدخول الجماعي للمؤسسة. كما لاحظنا غيابا كليا لواقيات خارجية حامية من حرارة الشمس أو الأمطار على الأقل على طول المحيط الخارجي لجدار المؤسسة، مع بعض الاستثناءات مثلما فعلت شركة الكهرباء بمدينة الزهراء، فالبحث عن أماكن الوقاية من أشعة الشمس أو الأمطار عند الانتظار، أصبحت كذلك أسبابا ملائمة للتجمع وتكديس الأجساد؛ ووفرت بيئة مجانية لنشاط الفيروس مدعومة بأنانية الأفراد وحرصهم على الخلاص الفردي .

انه "نظام الأنانية" (باومان، 2017 : ص13) ، المعادي للفعل التضامني، والذي كرسته منظومة البقاء للأقوى، حيث أصبح الاختيار المتاح هو ضمان "ألا تصيبك الكارثة...، والحرص على أن لا تكون منهم"، وهو "حب الذات" والحرص عليها دون الأخذ بعين الاعتبار أنّ سلامة الذات هي سلامة مشتركة مع الآخر الذي لم نحرص على الاهتمام بصحته، خاصة أننا في وضع وبائي يتطلب العمل بتناسق وبشكل منظم مع كامل المحيط الذي

[1]. ما لاحظناه يوميا خلال وبعد فترة الحظر الصحي، أن الصيادلة ومكاتب البريد والبنوك على سبيل الذكر لا الحصر، قد اتجهوا لتطبيق إلزامية وضع الكمامة وإجراءات التباعد الجسدي، وذلك بإدخال شخص واحد أو اثنان على أقصى تقدير داخل المؤسسة، حيث أن ظاهر الإجراء يعبّر على حرصها على سلامة المواطنين، ولكن في حقيقة الأمر فان هذا الحرص ليس سوى حرصا جزئيا ومضيقا، لأنه موجه إلى العاملين داخل المؤسسة فقط، وكل من هو خارجها لا يعنيها في شيء و"ليذهب إلى الجحيم" مثلما عبر على ذلك أحد الموظفين.

نتواجد فيه، "فحب الذات" (فروم، 2007 : ص153) في ظروف الوباء البيولوجي أو أي خطر طبيعي أو إنساني، يمكن أن يتحول الى "وباء" اجتماعي داعم للوباء البيولوجي.

لقد كشفت جائحة "كورونا" أن قيم النفعية والانتهازية والأنانية والحرص على الخلاص الفردي، هي القيم المقدمة والمهيمنة التي يندفع نحوها الأفراد من أجل توفير "أفضل حياة ممكنة"(Audgard, 1999 : p10) ، وذلك بإتباع إستراتيجية استبعاد الآخرين من مجالهم الحيوي، وإذا كانت هذه القيم خيارات فردية ربما يضمنها ويدافع عنها النظام العالمي القائم (تشومسكي، 2000 : صص.26-27) ، إلا أنها من الناحية الاجتماعية أصبحت تمثل قيمًا خطيرة، لأنها تتناقض مع مبدأ ضمان السلامة العامة والحق في الحياة، باعتبار أن خلفيات هذه القيم تؤكد على قانون ضمني ومتفق عليه؛ يعتبر أن من يملك، ومن يقدر، له الحق في الحياة، وما دون ذلك سيفرزه الموت الاجتماعي.

الاحتكار والمضاربة والتهريب واستغلال النفوذ والبيع المشروط واقصاء الآخر من مجال الحماية التي يتمتع بها المسؤول الاداري... كلها أنشطة مدفوعة بعقلانية غائية قائمة على التدبير العقلاني الموجه للخلاص الفردي وملاحقة المصالح الفردية. ولئن كانت هذه الأفعال معبرة في وجه من وجوهها على نجاعة الفاعلين المعنيين بهذه الأنماط السلوكية، ومعبرة على قدرة الأفراد على التوقع بحدوث الأشياء وبسلوك الأشخاص الآخرين لأنها ستوفر الربح والمنفعة والنجاة لصاحبها، الا أنها في وضعية الأزمة تعتبر أفعالا غير مساعدة على الاستقرار والتضامن الاجتماعي الذي تتطلبه الوضعية.

2 . القِيَم التقليدية وإجراءات التباعد المستحيل

يرتكز "نموذج" العلاقات التقليدية على انفعالات التقارب الحميمي ومراعاة علاقات القرب والود والمجاملة، وغالبا ما تُفعّل هذه العلاقات خارج الأطر الرسمية، ونرتقب منها دائما وفي وضعيات ومواقع مختلفة، أن يتصرف الأفراد والجماعات على أساس الخوف على الآخر وليس الخوف من الآخر، وحسب ماكس فيبر ينبني النشاط التقليدي على العادات والتقاليد والقيم والأعراف التي درج عليها الناس وتعودوا القيام بها دون وعي كامل بأسباب وضعها أو بغاياتها القصوى مثل طريقة الأكل وأساليب التحية والتعبير على علاقات الود والمجاملة. إن مجمل التصرفات المعتادة التي يقوم بها الحشد في الحياة

اليومية تقترب من هذا النمط، فالارتباط مثلا بالمعتاد يمكن أن يتم الحفاظ عليه بدرجات متباينة من الوعي وبمعان مختلفة (فيبر، 2011 : ص54) .

ولكن يبدو أن "نموذج" العلاقات التقليدية لا يتقدم دائما على هذا النحو الايجابي والمثمن اجتماعيا، باعتبار أن العلاقات الحميمية والتوادد والمجاملة والمراعاة...، اذا لم توظف في مواضعها الملائمة فانها قد لا تساعد على الالتزام بإجراءات الحظر الصحي وبمقتضيات التباعد الجسدي، خاصة أن عمق ثقافتنا وعاداتنا، كانت قائمة دائما على قيم القرب الاجتماعي والمجاملة ومراعاة العلاقات الشخصية.

ورغم تحذيرات وزارة الصحة من كون التقارب الجسدي والاختلاط والتلامس من الأسباب المباشرة التي من شأنها أن تسهل انتشار وتكثّف الفيروس(منظمة الصحة العالميّة، 2020)، إلا أن "ثقافة التقارب" كانت أقوى من وعي الأفراد بمخاطر الإصابة بالوباء، إذ يكفي ملاحظة الحشود في الأسواق وملاحظة ما يجري في البريد التونسي وفي كل مؤسسات الخدمات... حتى ندرك جيّدا قوة العادات الحميمية والتقارب وتصريف الأمور خارج الأطر الرسمية "سَلِكْهَالُو"[1]، مثل ما رصدناه من تبادل للكمامات المستعملة عند الدخول إلى مكاتب البريد، وهي كلها ثقافة متشكلة تاريخيا في عمق شخصيتنا القاعدية، وتمكنت من الانتشار بشكل مكثف في عمق علاقاتنا المباشرة أو العابرة وعلى كامل الأطر التي نتحرك فيها يوميا.

رغم أن مسألة التباعد الجسدي هي مسألة ثقافية والتقييم السوسيولوجي لها يبقى دائما نسبيا ويصعب ضبطه بمعايير وقياسات دقيقة، الا أنه في وضعيات قصوى مثل الجوائح، يصبح قياس المسافات الاجتماعية أمرا ضروريا والالتزام بمعايير دقيقة وصريحة أمرا ملزما للجميع، حيث كشفت جائحة "كورونا" بكل وضوح، كيف أن ثقافة التونسي ما زالت تفتقر إلى معنى الخصوصية واحترام المسافة الشخصية التي حددها "ادوارد تى هول" بمسافة قدمين ونصف إلى أربعة أقدام. ولكن في ظروف الوباء فان المسافة الشخصية لم تعد تكفي لكي يحمي الفرد نفسه من عدوى المرض، إذ علينا الانتقال إلى مستوى المسافة الاجتماعية التي حددها "تى هول" من 7 إلى 12 قدم أي ما يعادل 1.5 م أو 2 م، وهي

[1] . "سلكهالو" :كلمة عامية تونسية تعني انقاض شخص ما من مأزق ولكن بطرق غير مقبولة قانونيا

المسافة التي تنقطع فيها إمكانية شمّ رائحة الآخر (تي-هول، 2007 : صص165-168) ، وفي هذه المسافة الاجتماعية تصبح فيها احتمالات انتقال الفيروس عند العطس الشديد والمضغوط ضعيفة جدا.

ولكن بدا واضحا في هذه الجائحة أن التدافع والتصادم والاحتكاك في الأماكن العامة هو ميزة للثقافة التونسية وليس مجرد حالة اجتماعية عابرة أو مميزة لفئة اجتماعية بعينها، وذلك بغض النظر عن الأماكن التي تفرض بطبيعتها التدافع والاحتكاك مثل وسائل النقل الجماعي، حيث أن ثقافة التواصل الحميمي قد تصل إلى لمس الأيدي والتبلل المتبادل برذاذ التنفس الرطب أثناء المحادثة، وتمثل كلها مُدْخَلات حسية لنشاط الفيروسات المعدية، اذ يظهر سلوك التنفس في وجه الآخر ومحادثته وجها لوجه وملامسته عند المحادثة ليست مجرد سلوكيات عابرة، وإنما هي جزء حيوي من نظام معقد للسلوك يصعب التعامل معه اعتمادا على الوعي الفردي، وهنا يتدخل عنصر آخر مرتبط بالقيم الثقافية للمجتمع التونسي، انه عنصر الخجل ومراعاة مشاعر الآخرين، خاصة عند التفاعل المباشر في الأماكن العمومية، وهي تجارب عايشناها يوميا عندما وجدنا أنفسنا معطلين أخلاقيا على القول للشخص الذي يقف خلفنا أو بجانبنا "من فضلك حافظ على مسافة التباعد الجسدي".

إن أخلاق المراعاة والمجاملة وتسهيل المعاملات بشكل تقديري، تعتبر من عناصر "نموذج" العلاقات التقليدية التي قد تنزلق بنا في وضعيات معينة نحو تجاوز الإجراءات الصارمة الصادرة عن مؤسسات الدولة عند انتشار الأوبئة[1]، وهي وضعيات من شأنها أن تجعلنا نتساءل مرة أخرى على قيمة القوانين بالنسبة للفرد التونسي، وعلى حدود تطبيقها بشكل صارم في مواجهة ثقافة المجاملة والمراعاة وتقديم مصالح العلاقات الشخصية، التي لم

[1] . رغم ما أصدرته وزارة الداخلية من قرارات لمنع التجول عبر المدن، إلا بترخيص استثنائي جدا، إلا أننا لاحظنا قدرا كبيرا من حركة السيارات المحملة بالأشخاص، تكاد تقترب من مستوى الحركة أيام الراحة الأسبوعية، وهو معدل يعتبر مرتفعا في ظروف الحظر الصحي ومنع الجولان، خاصة أن هذه الحركة قد تنتهي في معظمها بلقاءات جماعية للعائلات والأصدقاء.

تتوقف على التفعيل حتى في ظل مواجهة أخطار الموت، فالمجتمع التونسي ما زال يترنح في عملية الانتقال من نموذج المجتمع التقليدي، إلى نموذج المجتمع الحديث، القائم على تفعيل قوة القوانين ونظام المؤسسات، وما العودة القوية للفيروس في الموجة الثانية والثالثة، إلا نتيجة لقرارات المراعاة الشخصية لأصحاب المصالح الاقتصادية، ونتيجة لعجز المجتمع على التخلص أو التعطيل المؤقت للعادات والسلوكيات التقليدية، مثل الزيارات الجماعية واحتفالات الأعراس على الطريقة التقليدية، التي مثلت بيئة اجتماعية محفزة لنشاط الفيروس.

إن الأفراد يؤثرون في بنية مجتمعهم بأفعالهم وسلوكياتهم وأعمالهم، وفي نفس الوقت يتأثرون ببنية المجتمع على صعيد قوانينه الوضعية وأعرافه وتشريعات مؤسساته، وهو ما يجعلهم ينخرطون في وضعيات إما أنهم لا يرغبون فيها أو ليس بامكانهم التملص منها، لأنها أفعال تتراوح بين المنطق العقلي للفاعلين وبين الجانب اللاعقلي في سلوكهم (Brèchier, 2000 : p80) وبالتالي فان تقديم الناس لمصالحهم أو تقاليدهم السلوكية أثناء تفاعلهم مع أحداث الجائحة؛ قد جعلهم لا يملكون دائما وعيا واضحا بنتائج أفعالهم. كما أن جهلهم في عديد الوضعيات بقواعد الحق والمؤسسات وعدم انتباههم الى مقاصد القوانين أو مآلاتها، مثل فرض الحظر الصحي وإعلان حالة الطوارئ وفرض التباعد ووضع الكمامة وإغلاق المقاهي ومنع الحفلات...قد تسبب في تعطيل تنفيذ اجراءات الوقاية وتسبب في تمييع سلطة المؤسسات وأحدث حالة من التوتر والتشكيك وفقدان الثقة بين المؤسسات وأفراد المجتمع.

إن مواقف وتصرفات الأفراد أثناء الجائحة هي التي جعلت من مخططات ادارة الأزمة أول ضحية للأزمة، ففي ميدان مجهول أو معلوم جزئيا مثل الأوبئة، غالبا ما تتعطل اجراءات تفعيل المخططات والاستراتيجيات الوقائية أو برامج المعالجة المباشرة، وذلك بسبب أخطاء في التوقع وتقديرات سيئة لخطورة أو اتجاه التهديد (Peretti-Watel &Châteauneuf-Malclès, 2020) أو بسبب قراءة سيّئة لردود أفعال الناس عندما تفرض عليهم تعليمات لم يتعودوا عليها ولم يتدربوا عليها من قبل مثل غلق المقاهي ومنع استعمال النار جيلة "الشيشة" ومنع التجمع داخل المقاهي واجبارية وضع الكمامة في الأماكن العمومية....

كما أنه من بين الحالات الغامضة والمصاحبة لأزمة الكوفيد 19 هو عدم القدرة على التوقع بالعوامل البشرية المتسببة أو المحفزة، وهي عوامل غالبا ليس لعامة الناس الوعي الكافي بها أو لا يستطيعون تقدير مخاطر سلوكياتهم المساعدة على تغذية مسالك العدوى، وذلك بحكم ارتباط هذه السلوكيات في جزء كبير منها بما تعودوا عليه وألفوه من عادات وتقاليد. فإجراءات معالجة الأزمة تفترض أن الناس لهم القدرة على مشاركة الجهات الرسمية المعنية، ولكن غالبا ما تكون ردود الأفعال ليست في مستوى الانتظارات، وبالتالي فان معظم الاجراءات قد تفشل أو تتعطل لأن الناس لم يستجيبوا لها بالشكل المنتظر.

3 . مجال الرأي: بين صناعة الأحداث ومقاومة الاثارة

هو "النموذج" الذي تجتمع فيه مختلف القوى الفاعلة عبر الكلام، من أجل تصدير الأفكار والآراء والمواقف والمعتقدات والإيديولوجيات، وهو "نموذج" كلّ الذين يشتغلون على الخبر وعلى الأحداث الهامة لكي يصنعوا منها مادة قابلة للاستهلاك وتوجيه الرأي أو التلاعب به، وهذا "النموذج" غالبا ما يجتمع فيه بالدرجة الأولى المفكرين والباحثين وأصحاب الاختصاص والصحفيين، ولكنه يدمج كذلك الرأي العام لعامة الناس باعتبارهم فاعلين وقادرين على التأثير في مسار أحداث معينة من خلال تداولهم اليومي للأحداث بالزيادة والنقصان والتحريف والتضخيم أو التتفيه.

وقد مثلت جائحة "كورونا" وفترة الحظر الصحي، مناسبة لعالم الإعلام للاشتغال على الرأي وتوظيفه، ليس للتوعية والإرشاد فحسب (مثال برنامج المجلة الصحية في القناة الوطنية 1) ، وإنما كذلك وبالأساس للربح واستقطاب المشاهدة.

عندما نتحدث عن عالم الإعلام في ظروف استثنائية مثلما هو الشأن اليوم مع جائحة "كورونا"،وفي مقدمته التلفزيون والمذياع ثم الإعلام غير الرسمي عبر شبكات التواصل الاجتماعي، فان هذا يفترض أنّ الإعلام سيقدم شيئا استثنائيا يتوافق مع الظروف الاستثنائية، ولكن بعد المشاهدة والمتابعة اليومية والمطولة لأحداث الوباء، لاحظنا أن الاعلام قد وضع المشاهد مرة أخرى أمام مشاهد وأساليب ومضامين عادية تريد أن تَظهر للجمهور وكأنها استثنائية.

إن حقيقة النخبة، غالبا ما تنكشف عند الأزمات، حيث حفزت الجائحة رغبتها الجامحة في الظهور الإعلامي وافتكاك موقع لها تحت الأضواء، وربما وفرت لهم فرصة للإشهار المجاني والتعريف بهم لدى المستهلك، فالأطباء أصبحوا يؤثثون البرامج الحوارية ويتداولون عليها مثلهم مثل السياسيين أو المتكلمين في السياسة؛ وينتقلون من قناة إلى قناة بنفس المعلومات، فقط لتأمين دعوتهم باستمرار (بورديو، 2004 : ص41).

ومن أجل كسر روتين المعلومات الثابتة التي تصدرها يوميا وزارة الصحة، عمل الإعلام على إعادة تشكيلها وجعلها متحركة من جديد لكي تواكب منطق الإثارة وتنقل الأحداث الوبائية إلى مادة للاستهلاك الإعلامي[1]، وهي المهمة التي أوكلتها الموائد الحوارية لمن أطلق عليهم بيار بورديو "بالمتكلمين"، وهم السفسطائيون الجدد أو المتلاعبون بالكلام، ومن يملكون الجرأة على التصريح بمعلومات مثيرة، وبأسلوب العارف المتيقن[2] دون أي سند علمي.

كلها خطابات استعراضية وغير مفهومة من قبل عامة الناس ولا تضيف شيئا من الناحية العملية، سوى أنها جعلت من حدث الوباء، حدثا فرجويًا فقط، في الوقت الذي يحتاج فيه عامة الناس لوحدة وبساطة المعلومة، حتى يتفاعلوا معها بنفس القدر من الفهم والتطبيق العملي الذي هو من مقتضيات التحكم الاجتماعي في الوباء. ولكن البحث على التموقع الاعلامي قد جعل من بعض الاعلاميين أو المحسوبين على الاعلام (الكرونيكور) يشتغلون بمنطق السلوك التجاري القائم على الاستعراض والتضخيم واحتكار المعلومة التي من المفروض أن تصدر فقط عن الجهات المختصة، لأن مشكلة الأوبئة يمكن أن تدخل ضمن مسائل الأمن القومي.

[1] . إن التضخيم الخيالي لأحداث الموت الفيروسي عبر وسائل الاعلام، قد سمح "للمتكلمين" بصناعة "الفرجة" والمشاهد الاستعراضية، التي تحولت في ما بعد إلى موضوع للاستهلاك الإعلامي والتداول الشعبي في شكل إشاعات مسهلة في جزء منها على إحداث الفوضى وتجمع الناس دون مبرر، وهو الأمر الذي دفع بأعوان البلدية وأعوان الصحة لدفن الموتى بالفيروس في ظلمة الليل وتحت الحراسة الأمنية.

[2] . نذكر تصريحات بعض المسؤولين والصحفيين بخطأ وسوء ادارة وزارة الصحة لمجريات الوباء، وتصريح أحد الأطباء المغمورين بأن عدد الإصابات والموتى بالفيروس سيصل إلى 300 ألف، والظهور الاستعراضي في قناة خاصة لعدد من المتحذلقين بالنماذج والأرقام والإحصائيات والرسوم البيانية، وهم بصدد تقديم صورة مجردة على تطور الوباء واحتمالات الوفاة بشكل جاف.

وعندما تنتهي المعلومة الوبائية وتصبح روتينية ومستهلكة، سرعان ما تلتجئ وسائل الإعلام إلى استحضار النعرات والحساسيات السياسية، بعد أن خمد لهيبها مؤقتا في فترة الحظر الصحي الشامل، ولتجعل من حدث الوباء إطارا جديدا لاستقطاب المشاهدة وإثارة الرأي العام، في الوقت الذي يحتاج فيه المجتمع للاستقرار الانفعالي العام وتوحيد جهود المقاومة المشتركة، فهذا الوزير ناجح ليس لأنه ناجح وإنما لأنه ينتمي، وذاك المسؤول فاشل ليس لأنه فاشل، وإنما لأنه ينتمي إلى الطرف السياسي النقيض، وهكذا اختلطت السياسة بأحداث الوباء بفعل قوّة التضليل والتوظيف الإعلامي في غياب قيمة المسؤولية والصدق، فالإعلام بانتهازيته للأحداث[1]، وضعف إحساسه بالمسؤولية الإعلامية، وتركيزه فقط على نسبة المشاهدة، قد جعل من الوباء مجرد حدث متغير قابل للتوظيف والاستهلاك ويمكن نسيانه بسهولة.

ومهما كانت استراتيجيات الإثارة، فان وسائل الإعلام لم تفعل بحدث الوباء سوى أن جعلت المواطن أسيرا للمعلومة المثيرة والملهية، وخفّضت من مستوى مصداقية المعلومة الوبائية، وجعلت منها أداة لإعادة إنتاج "الخوف المربح"، لأنها وظّفت كل الوجوه الإعلامية (رياضيين – فنانين – منشطي برامج ترفيهية...) لتتحدث في تفاصيل صحية ليست من مشمولاتها، باعتبار أن وسائل الإعلام قد أدركت جيدا أن ما يجمع الناس في فترة انتشار الوباء، هو الخوف، مثلما أدركت قبل ذلك أن الأحقاد الإيديولوجية والسياسية هي المحددة للحياة السياسية ولربحها الخاص، فاستثمرت فيها.

والآن ما نشترك فيه هو الخوف وإن كان ذلك بدرجات مختلفة، لذلك أصبحت مهمة الإعلام موجهة أساسا لتشكيل الخوف وصناعته وتوجيهه من أجل التحكم ومزيد التحكم في الرأي العام، الذي لم يعد يملك سوى إعادة التداول في ما تصدره وسائل الإعلام من معلومات غامضة ومتضاربة ومضخمة، قد تسمح بتمرير الإشاعة.

[1] . وظّفَ الاعلام السياسة في أحداث سابقة مثل أحداث القطاع التربوي أو العاطلين عن العمل أو الفيضانات.

تنتمي الإشاعة إلى "مجال الرأي"، وهي الخبر المتداول شفاهيا، دون إمكانية التثبت منه أو اثباته (كابفيرير، 2007 : ص 17)، ولكن ما يجعل منها عند الأزمات أمرا مثيرا للقلق، أن تحققها يبقى أمرا واردا، لأنها مرتبطة في جزء منها وعند ظهورها وانتشارها بأحداث واقعة.

عند ظهور وباء "كورونا"، أصبحت الإشاعة هي توأم الوباء أو العنصر الملازم له، حيث تمحورت الإشاعات حول عدد المصابين وحول كيفية انتقال الفيروس وقدرته على التطور، إضافة إلى الأحداث المرتبطة بالوباء، مثل عدد الموتى والموت السريع والمباغت وشدّة ألم المريض قبل الموت وكيفية الدفن واحتمالات انتقال الفيروس من جسد الميت إلى جسد الأحياء. كما شملت الإشاعة مجال الاستهلاك، مثل أنواع الأدوية وطرق العلاج الطبية والتقليدية، وشملت أيضا مآل صرف التبرعات وكيفية توزيع تجهيزات الوقاية وثمنها...،لتتحول بذلك الإشاعة إلى إطار حاضن للأحداث الوبائية، في ظل تغوّل وسائل الإعلام الخاصة ووسائل التواصل الاجتماعي، وأخذها للأسبقية الإعلامية على حساب ما تصدره مؤسسات الدولة من تصريحات ومعلومات طبية أو أمنية.

من جهة أخرى وكمحاولة للحد من قوة الاشاعات الإعلامية حرصت بعض القوى المدنية على خلق قوّة "مقاومة" قادرة أن تحدث شيئا من التوازن الاعلامي من أجل الحد قدر الامكان من حالة الإرباك والتخبط التي وقع فيها المجتمع التونسي منذ ظهور الحالات الأولى من المصابين بفيروس الكوفيد 19 ، حيث تأسست العديد من المنصات والمواقع الاعلامية التي كرست نشاطها الاعلامي لإبطال الشائعات وتقصى الأخبار الزائفة بعيدا عن التجاذبات والصراعات السياسية والحزبية[1].

4 . المصلحة المشتركة وقيمة نكران الذات

[1] . في هذا الاطار المقاوم ظهرت على سبيل المثال المنصة الرقمية الاستقصائية "فالصو"وهي عبارة على مشروع توأمة أفكار بين مجموعة من الصحفيين الناشطين في المجتمع المدني وبعض الأكادميين وبمساعدة مجموعة من الشباب التونسي والشباب الليبي؛ غايتها تنمية الوعي بمخاطر الاشاعة ورصد الاخلالات المهنية والتثبت في مصداقية ما ينشر على مواقع التواصل الاجتماعي في تونس بواسطة برمجيات وتقنيات متخصصة في تركيب وفبركة الصور. (بولعراس، 2020).

بالعودة إلى أعمال فلاسفة العقد الاجتماعي وبالخصوص إلى أعمال جون جاك روسو (روسو، 2004 : صص.23-25)، يمكن أن نعثر على معاني المواطنة من خلال مبدأ العقد الاجتماعي، حيث يكون أفراد المجتمع الواحد مرتبطين مع بعضهم البعض بقيمة المصلحة العامة، وفي هذا "النموذج" يتصرف الناس كما لو كانوا جميعا مسؤولين على تحقيق المنفعة المشتركة؛ ولكن أعمالهم غالبا ما تكون خاضعة لإجراءات الشرعية القانونية المعمول بها رسميا.

لقد أظهر جزء من المجتمع ما فيه من استعدادات للتضامن والتضحية من أجل رعاية الآخرين والمساهمة في حفظ سلامتهم في فترة الحظر الصحي الشامل، حتى وان كان مجال فعلهم لا يستدعي بالضرورة نموذج القيم "العائلية" المشتركة ولا يشتغل على أساسها مثل تجربة مصنع "كونسوماد" CONSOMED [1].(سحبون، 2020)

كما أن علاقات المواطنة قد تظهر فيها الروابط بين الناس على نموذج رابط القرابة، ويكون مضمونها قائما على علاقات التضامن والاعتماد المتبادل والحماية الموجودة في الحياة العائلية، ويرتكز هذا المستوى العائلي على قيم الرعاية والتضحية والتضامن.

في هذا "النموذج"؛ يكون فعل الهياكل المدنية موجها نحو تدعيم مجهود وإمكانيات مؤسسات الدولة دون التعارض معها أو التناقض مع مبادئها العامة، وغالبا ما تتجه ثمار ونتائج مجهوداتها نحو الصالح العام دون الانتفاع الشخصي بذلك، وتكون قائمة على أساس التنسيق بين مؤسسات الدولة وبين الأطراف المدنية المنخرطة في الفعل سواء كانت

[1] . نذكر ما أقدم عليه عمال وعاملات مصنع "كونسوماد" CONSOMED لصناعة المستلزمات الطبية بالقيروان، حين قرر 150 عاملا من بين 240 عاملا بتاريخ 20 مارس 2020 ، وبدعوة من إدارة وصاحب المصنع، الدخول طواعية في الحجر الصحي الجماعي داخل المصنع من أجل ضمان استمرارية إنتاج وتوفير حاجيات المستشفيات من كمامات وواقيات وملابس خاصة بالوقاية من فيروس "كورونا"، هذا إضافة إلى عائلة صاحب المصنع الذين التزموا كذلك بالحظر الصحي في المصنع من أجل إظهار قيمة الرعاية والتضحية مع بقية العمال. ورغم عدم وجود أي الزام قانوني يجبر العمال على مثل هذه الخطوة مثلما صرح بذلك مدير المصنع، إلا أن هناك دوافع قيمية تطوعية قد تحركت فيهم ووضعتهم أمام مسؤوليات جديدة وصعبة ومرهقة، ودفعتهم للانخراط الجماعي في عمل غير مضمون، لا من الناحية الصحية وظروف الإقامة الجيدة، ولا من حيث الأجر.

جمعيات أو منظمات... وبالتالي فان الأفعال والقرارات تكون موجهة نحو تكريس قيمة "المواطنة" في اتجاه فرض مبدأ الصالح العام بطرق عمل مدنية وقانونية ومقاومة "لنموذج" العلاقات النفعية في جانبها المعطل لمبدأ القانونية وشكلية عمل المؤسسات.

منذ الأيام الأولى لتفشي وباء "كورونا" بدأت بعض القوى المدنية المهيكلة في التحرك؛ وأظهرت في تحركها قدرة كبيرة على الانتظام والانضباط وتحمل المسؤولية على نموذج قيم المؤسسة العسكرية، حيث أنه في سياق العمل التضامني وتفاعلا مع متطلبات الوضع الوبائي الذي بدأ يتجه بتسارع في اتجاه التأزم، أظهرت الكشافة التونسية[1]، باعتبارها مكون من مكونات المجتمع المدني، استعدادها غير المشروط لدعم المجهودات المبذولة للدولة من خلال توفير قيادات كشفية شابة كانت في الموعد بمختلف ولايات الجمهورية التونسية، من أجل تقديم الخدمات الإنسانية والاجتماعية المعبّرة بوضوح على هذا التوجه القيمي نحو التطوع لفائدة الصالح العام ورعاية الأشخاص المتضررين في إطار العمل التطوعي المهيكل.

وإذا أدركنا أن عائلات المتطوعين قد سمحت لأبنائهم بالتطوع في بيئة عدوانية وخطيرة، وقدّموا في قراراتهم قيمة نكران الذات على قيمة النفعية أو اللامبالاة أو الحرص، فان هذا الفعل قد جعل من "نموذج" المواطنة يتقاطع مع "موطن" العلاقات العائلية في جانبها المحمود والمثمن اجتماعيا، وكشف ما في المجتمع التونسي من قدرات وإمكانيات فردية وهيكلية مدنية، قادرة في تقاطعها، على الارتقاء بالعمل المدني[2] إلى مستوى القدرة على المقاومة والتحكم في المخاطر التي يمكن أن تصيب المجتمع.

[1] . وفرت الكشافة التونسية أكثر من 6000 متطوع منذ بداية شهر مارس 2020 ، ليتطور العدد إلى 20000 كشاف متطوع في الأيام اللاحقة (اسماعيل، 2020).وعملت كذلك في كامل أنحاء البلاد على تنظيم طوابير المواطنين داخل المؤسسات والفضاءات العامة والمساعدة على عمليات التعقيم وجمع المساعدات والتبرعات من أجل إعادة توزيعها على الفئات المستحقة، وذلك بالتنسيق مع السلط الجهوية والمحلية ومصالح الشؤون الاجتماعية. وقد أفادت قيادة الكشافة أن ساعات التدخل في فترة الحظر الصحي العام، قد بلغت 418205 ساعة و6000 تدخل و310 متبرع بالدم من قادة الكشافة أنفسهم، (اسماعيل، 2020).

وفي جانب آخر من نموذج العلاقات العائلية؛ يمكن أن نذكر مثلا ما أفاده لنا مديرين من مدراء دور المسنين من تصريحات أكدت لنا ما شهدته دور المسنين من تطور غير مسبوق على مستوى العمل التطوعي بساعات عمل

إن الأزمات الوبائية في جانب منها، قد ساعدت على "فكّ العطالة"[1] عن عديد القوى الاجتماعية المدنية وساعدت على تحريك قيم التضامن والتضحية والرعاية والمبادرة التطوعية لدى بعض الفئات الاجتماعية التي استطاعت أن تحوّل هذه القيم إلى ممارسة اجتماعية محمودة ومنشودة اجتماعيا، وهي قيم على درجة عالية من الوعي بها باعتبارها قيم قادرة على فعل شيء ما لأن الفاعلين الحاملين لها يعتقدون في طهارتها وأحقيتها وصدقها، لذلك يجب أن نتعامل معها سوسيولوجيا، باعتبارها طاقة اجتماعية تستوجب التثمين والاشتغال عليها تربويا، من أجل تحقيق الشراكة التواصلية الفعالة عند الأزمات يكون مبدؤها الثقة المتبادلة بين قوى المجتمع المدني وبين مؤسسات الدولة[2].

تعتبر الثقة المتبادلة من أسس التواصل الفعّال عند الأزمات، والمعبّرة على نوع من الحس الثقافي المدني الملتزم بنموذج القيم العسكرية التي حسب تقديرنا ولمقتضيات المقاومة، يجب أن تترسخ في هياكل الجسم الاجتماعي ككل، وهي ثقة تواصلية يصعب تفعيلها إلا بعد عملية تدرب واستبطان شاقة لأخلاقيات التواصل ولقيم الانضباط ونكران الذات.

ثم ان الأفراد الذين يتحركون بدوافع عقلانية قيميا هم من يقومون بالفعل بغض النظر عن نتائجه المتوقعة ويقومون به خدمة لما يعتقدون فيه والذي يظهر لهم على أنه واجب أو

اضافية من أجل توفير درجة عالية من الرعاية والإحاطة بكبار السن، باعتبارهم الشريحة العمرية الأكثر عرضة لخطر الموت من جراء إصابتهم بفيروس "كورونا".

[1] . تحت شعار "إرادة الشباب التونسي" (خلفاوي، 2020) وبمبادرة ذاتية تطوعية، قام عدد من طلبة المعهد العالي للدراسات التكنولوجية برقادة- القيروان، بإشراف من أساتذتهم بإصلاح وصيانة 20 سرير إنعاش لصالح مستشفى ابن الجزار يقدر سعر الواحد منها ب17 ألف دينار تونسي. هذا اضافة الى مبادرات شبابية أخرى تمثلت في ابتكار منصة ذكية قادرة على الكشف عن أعراض فيروس "كورونا" وصناعة أقنعة واقية وممرات تعقيم ذكية وصنع آلة تنفس اصطناعي تعمل بالأكسجين من أحد طلبة الهندسة لا تتجاوز تكلفتها 3 آلاف دينار في الوقت الذي يصل سعرها في السوق إلى 17 ألف دينار. هذا إضافة إلى صناعة "روبوت" لفائدة وزارة الداخلية وإطلاق منصة "أحكيلي" للرعاية والإحاطة النفسية بالمرضى وغير المرضى (التريكي، 2020).

[2] . لم يدخر الهلال الأحمر التونسي (التريكي، 2020) طاقاته الشبابية، وإنما استطاع بخبرة قادته أن يوظف هذه الطاقات للصالح العام خارج وداخل المستشفيات على غرار مستشفى المنجى سليم بالمرسى ومستشفى الحروق البليغة ببن عروس، وذلك بحملات التبرع والتحسيس والتوعية والتوجيه والاحاطة النفسية بالفئات الهشة نفسيا في فترة أصبحت فيه حركة أفراد المجتمع شبه معطلة بسبب الخوف من العدوى.

كرامة أو جمالا أو تعاليم دينية. لهذا لا يمكن أن نتحدث عن عقلانية قيمية الا عندما يستجيب الفعل البشري لتلك الطلبات ومن هنا تكتسب هذه العقلانية القيمية من الأهمية ما يكفي لابرازها بوصفها نمطا خاصا (فيبر، 2011، ص53-55).

من جهة أخرى اذا استند المجتمع على قيم المبادرة المسؤولة والتضحية والثقة المتبادلة، فان الأزمات مثل الجوائح قد تكون فرصة ملائمة لاعادة نسج "مجتمع المقاومة" باعتباره مجتمع قادر على وضع استراتيجيات تتجاوز الحلول "التكيفية العابرة" أو ما عبر عنها منير السعيداني ب"التأقلم المطواع" (السعيداني، 2020 : ص10) في اتجاه التجذير الثقافي لفعل المقاومة حتى يتحول الى أسلوب عيش مبني جماعيا من أسفل الى أعلى بعد التدرب اليومي على ذلك.

5 . مجال الالهام والتعبيرات الرمزية: بين الالتزام والاستعراض

هو "النموذج" الذي يحدد فيه الأشخاص موقعهم في علاقة بمجموعة من القيم المتعالية التي لا تعتمد على رأي الآخرين ومصالحهم، وإنما على ما يؤمنون به من مُثل وعلى ما يختلج فيهم من عواطف وانفعالات. وهو كذلك "مجال" الإبداع والحس الجمالي والخيال، و من جهة أخرى هو المجال الذي يجمع الطقوسيين واليائسين والمنساقين والمحتجين.

عندما انتشرت الجائحة فجأة دون ظهور مؤشرات مسبقة عليها،فانها سرعان ما تحولت الى محفز لمزيد الاضطرابات والتوترات الاجتماعية، كما أنها مثلت فرصة للتعبيرات الرمزية والهام الخيال بصور فنية ناقدة ومعبرة على تفاعلات الواقع الاجتماعي[1]، وعن حالة الوعي الاجتماعي المشترك لفئات اجتماعية استطاعت أن تتجاوز النعرات السياسية والتميز

[1] . "مهرجان كونوليا" / أعمال الفنانين التشكيليين "لشَهْلة سومر وحسين مصدق وسحر الشتيوي"/ (خليل، 2020) الأعمال الكاريكاتورية و"النكتة" الفايسبوكية الساخرة جاءت كتعبيرات فنية بغاية الترفيه أو التوعية أو التعبير عن حالة الفوضى والشك والشعور بالهشاشة والترقب والحيرة تجاه المدن التي أصبحت منهكة وغارقة فجأة في صمتها بعد أن كانت في حالة الاكتظاظ الذي لا ينتهي.

الجهوي ومختلف أشكال الانتماءات والحسابات الضيقة[1]، لأنها تعبيرات فنية موجهة عاطفيا وانفعاليا، وحاملة للمعنى بشيء من التسامي على واقع الخوف والتوتر الذي أنتجته الجائحة ولتقدم نفسها باعتبارها مسلكا لتفريغ أحاسيس الشدّة والضيق التي يشعر بها الفنان وعامة الناس؛ وهذا التداخل هو ما جعل منها أنشطة من النمط العاطفي المطعّم بشيء من العقلانية القيميّة.

من جهة أخرى أغلقت المساجد وتعطلت الصلوات الجماعية بما تحمله طقوسها من أبعاد ومضامين، لتنطلق على إثرها الاحتجاجات "الإيمانية" تتوعد بمزيد من الغضب الإلهي، "فالفيروس" مثلما عبّر على ذلك مجموعة من العقديين، "هو جند من جنود الله يسلطه على الشعوب المنحرفة والظالمة والطاغية في الأرض"، لتنطلق الحناجر في ظلمات الليل تكبيرا وتذرعا عسى الله يخفف أو يرفع الوباء.

والبعض الآخر أقام صلوات جماعية فوق أسطح المنازل ليحولها إلى مساجد موازية، وكأن "الفيروس" لا يصيب سوى الضال، بينما "المؤمن الصادق" (هوفر ، 2010 : ص16) صاحب الايمان والاعتقاد الراسخ والمتطرف، على حد عبارة ايريك هوفر، في حماية إيمانية مفارقة ولا يطاله البلاء، وحتى غير المؤمن أو صاحب الإيمان الشعبي، فانه يُقِيم على القَدَرِ حُجّته بعدم الالتزام وذلك بقوله "إلى كَاتْبِتْلُو حَاجَة تَوْ دْجِيه - خَلِيهَا على ربي- نحن مُوتا بطبيعتنا"، أو بالتشكيك الاستعراضي في حدث الوباء "مَفَمَاشْ منها لَحْكَايَة..."

هذه المعطيات الكيفية تظهر مرّة أخرى الخاصية المركبة للثقافة التونسية التي يختلط فيها الموروث السحري والخرافي بالبعد اللاهوتي والإيماني، لتنتج بنية ذهنية راسخة عند فئات كثيرة من المجتمع غير قادرة على الفصل بين الظواهر المحض طبية وبيولوجية وبين المتخيل الشعبي وبين جوهر الإيمان. ورغم أن هذه المعطيات دائما متداخلة عند جميع الشعوب، الا أن الفوارق بينها تكمن في بنية ترتيبها (Gaudard, 2010 : p42-48) وتقديم أحداها على الأخرى عندما يُواجَه الفرد أو المجموعة بمعضلة مثل معضلة الموت. وما

[1] . بكل التعبيرات الرمزية واللهجات المحلية، انطلقت الحملات على شبكة التواصل الاجتماعي بشيء من الزجر وأسلوب التخاطب المباشر والصادم "شد دارك" " اقعد في حوشك" "أبقى في بيتك" "الزم بيتك" "حبوا بعضكم" "اتهَشُوا شوَيا"...

جائحة "كورونا" سوى محطة من محطات الانكشاف؛ وفرصة لاختبار هذا الترتيب الذي وضع الخبراء الذين يقدمون مبدأ الواقع في موضع مناقض للعقديين الذين يقدمون الخيالي والرمزي في مواقفهم وأفعالهم تجاه الجائحة.

ان الاهتمام بتصورات ومواقف الفئات الاجتماعية العقدية للجائحة، يلاحظ على الأقل في المجال المكاني والزماني الذي تحركنا فيه، أن معظم هذه الشرائح غالبا ما تقف موقفا رافضا أو تشكيكيا تجاه ما يقره الخبراء، ولكن مواقفهم لا يجب التعامل معها باعتبارها مواقف غير عقلانية أو غير مسؤولة، لأن لها دائما مبررها ووجهة نظر نابعة من التجربة والخبرة اليومية أو من الاعتقاد الايماني في تعاليم معينة وقع تأويلها توافقا مع معتقدهم أو مع نزعتهم للتميّز عن عامة الناس والظهور بمظهر الخبير الموازي[1]، وهو ما جعل من اجراءات الوقاية ذات الصبغة التواصلية تفتقر لحظوظ النجاعة الكافية، (Peretti-Watel &Châteauneuf-Malclès, 2020) لأنها اجراءات غير متساهلة مع روتينية الحياة اليومية[2] للتونسي ومع ما تعود عليه من "أساليب حياة" وتصل حدّ المساس بمقدرات عيشهم. وعندما بدأت مرحلة ارتداء الكمامات؛ برزت لنا مرة أخرى التعبيرات الرمزية من خلال ألوان وأشكال الكمامات ومختلف الشعارات التي وضعت فوقها، فللإناث كماماتهن وللرجال كماماتهم ولمشجعي الجمعيات الرياضية كماماتهم، وبحضور كل هذا الاهتمام الرمزي بجمالية الكمامة، غاب مرة أخرى الوعي الوظيفي بالكمامة وبحسن استعمالها بالشكل الصحي، إلى درجة أن أصبحت ومضات التوعية لأهل الاختصاص الطبي، يطلقون

[1] . ان المقاومة التي عبّر عنها البعض من الفئات العقدية والفئات الشعبية لتلاقيح الكوفيد 19 مثلا، هي مواقف مبررة وخاضعة للتأثيرات المتبادلة داخل الجماعات العقدية الضيقة ومنتشرة بين الفئات المتأثرة بها أو التي تتداول معها في مثل هذه المسائل الخلافية، وهو ما جعل منها فئات مؤثرة وقادرة على أن تقف موقف موازي أو مضاد للخبراء وقادرة أن تلعب دور المحذر والمنذر والمطلق لإشارات الإنذار خاصة أن اجراءات الخبراء غالبا لا تأخذ بعين الاعتبار البيئة الاجتماعية والثقافية للأفراد التي لها ثقلا كبيرا على المواقف داخل الأوساط الشعبية.

[2] . ما رصدناه من سلوكيات متناقضة وغير عقلانية، أن هذا الذي تذرع ليلا وذاك الممتعض من غياب الوعي بخطورة الوضع، وذاك الجالس كل مساء أمام التلفاز لرصد آخر أرقام العدوى، نجده نهارا في الأسواق والأحياء وهو بصدد الانخراط في حلقات نقاش مطولة أو في تداول روتيني للحديث مع أصدقاء الحي والجيران حول أحداث الوباء دون أي التزام بإجراءات الوقاية. انه "الاستعراض الكلامي" المميز للشخصية التونسية والذي سرعان ما يبرز بشكل ملفت للانتباه عند الأزمات والأحداث الكبرى؛ دون أن يكون منسجما مع حجم الفعل والممارسة الفعلية.

صيحة فزع موازية، ليس حول ضرورة ارتداء الكمامة، وإنما حول كيفية استعمالها؛ لنكتشف من جديد ما يطغى على المجتمع التونسي من سلوكيات "مظهرية" و"استعراضية"؛ دون القدرة على المسك بجواهر الأحداث[1].

ولعل أكثر الأحداث تعبيرا عن الهشاشة، هو حدث الموت وما يمكن أن يقترن به من طقوس لحرمة الميت. هذا الميت الذي لا يتحرك ولا يتنفس ولا يملك القدرة على لمس الآخرين أو مصافحتهم، أصبح مُحمّل في خيال الناس بصورة عن "الموت النشيط"[2] أو هذا الموت المنتج للموت، لأن الجثة حاملة للفيروس، وهو ما سمح بالاستحضار الوهمي للخوف الناتج عن التداول الاجتماعي للأخبار والإشاعات المضخمة من قبل وسائل الإعلام ومن قبل عامة الناس أنفسهم[3].

الملفت للانتباه في سلوكيات التونسي المتقلبة، أن هذه "الطهرية الفيروسية" التي كان يدعيها الرافضون للدفن، سرعان ما تحولت في الموجة الثانية لانتشار الفيروس، إلى حالة من الرغبة الهستيرية للتماهي الرمزي مع جثة الميت، التي أصبح ينظر إليها الآن بشيء من "الطهارة" الشبيهة بطهارة الشهيد، وهي ردود فعل غير عقلانية على حالة الرفض الأولى، وكأن الميت قد تطهّر من الذنوب بعد عذاب المرض، ويستحق الآن أن يدفن في المقابر

[1] . في ظل كل هذه "المظهرية" والاستعراض الرمزي، تحركت "الماكينة" الاقتصادية لرجال الأعمال الصناعيين والتجار، ليوفروا ما يرغب فيه الناس من أزياء وواقيات وكمامات، جعلت من حدث الوباء أكثر تصالحا اجتماعيا، وأكثر فرجوية واستعراضا وفرصة أخرى للاثراء والفساد من قبل النافذين الاقتصاديين والسياسيين (غانمي، 2020).

[2] . ما نعني به بالموت النشيط ليس الموت البيولوجي للكائن وانما صورة الموت التي تشتغل في خيال من يعتقد بأن جسد الميت قادر أن يفرز فيروسات نشيطة لا تتأثر بالموت البيولوجي ويمكن لها أن تخترق حاجز التراب لتؤثر بالعدوى في أجساد الأحياء.

[3] . إن الاستحضار الوهمي "للموت النشيط" قد جعل الناس يهُبّون بشكل هستيري ويجتمعون في المقابر (بنزرت، مقبرة حي الجلاء، 2020) (بنزرت : احتجاجات الأهالي، 2020) (مجاز الباب، 2020)، فقط لمنع عملية دفن الميت المصاب بالفيروس في المقابر المسموح بها، دون مراعاة لمشاعر أهل الميت ولحرمته، وهو موقف يعبّر بوضوح عن ثقافة شعبية مشبعة "بروح الفكر الخرافي" باعتباره فكر يميل إلى التضخيم الخيالي والمقدس للأحداث.

العادية، بما يتطلب ذلك من تفعيل لكامل مراحل طقوس الدفن الإسلامية، وهذا ما جسدته أحداث طرد إحدى الفرق الصحية مع أعوان البلدية عند عملية الدفن، حيث تولى أهل الميت ذلك دون أية إجراءات وقائية أو خوف من "الموت النشيط".

كشفت جائحة "كورونا" ما يختزنه المجتمع التونسي من قدرات فنية ومواهب ابداعية، كما أنها أظهرت بشكل متطرف ما يحمله من معتقدات ومن طقوسية ومن قدرة على استحضار الخيالي والرمزي والمعتقد ليضعه موضع الوسيط بينه وبين الحدث، وهي كلها تعبيرات عن واقعة استطاعت بقوتها الهدامة أن تضع المتناقضات على نفس القدر من التأثير والقدرة على وضع الخيالي والمتخيل موضع الفاعل.

خاتمـة

مثلت أزمة الكوفيد 19 فرصة للتدرب على التغيير و"فك العطالة" على عديد الفئات الاجتماعية التي أظهرت استعدادات للفعل والحركة؛ وهو ما يسمح سوسيولوجيا بالقول أن لحظة الأزمات، ليست لحظات فراغ بالنسبة للمجتمعات، وإنما هي لحظات ثرية بالأحداث والتقلبات الاجتماعية الحاسمة وهي لحظات محفزة على الفعل الفردي والجماعي بأساليب مختلفة كالابتكار والتضامن والتوعية وبمحاولات التدرب على الانضباط والتأقلم مع الوضعيات الصعبة.

وإذا افترضنا أن الأزمات هي لحظة الحقيقة، فذلك من جهة كونها لحظات قادرة على الفرز واستقطاب الأفراد والجماعات في نماذج من الأفعال (تضامن – مبادرات – ابتكارات – طقوسية - احتكار – استبعاد...)، التي شكلت في تباينها "الجغرافيا الاجتماعية" للمجتمع التونسي؛ وهي نماذج لا يمكن استثناؤها عن بقية المجتمعات ولكن ترتيبها وكثافتها ودرجة تمسك الأفراد بتفعيلها في معيشهم اليومي، هو الذي يسمح للمجتمعات بالتمايز عن بعضها البعض وإظهار امكانياتها على "مقاومة" الأزمات؛ أوإظهار ما تراكم فيها تاريخيا من قيم فردانية نفعية ومن قيم المهادنة والمسايرة والتسليم بالأمر الواقع.

لقد كشفت لنا أزمة "الكوفيد 19" أننا نعيش بقيم مركبة ومتحركة حسب الوضعيات والمصالح والأهواء، يمكن اختزالها منهجيا في منظومتين من القيم: منظومة القيم "السائلة"

مثل النفعية والانتهازية والخلاص الفردي واللامبالاة والاستهتار، التي دعمت كلها بشكل مباشر المسالك الاجتماعية للعدوى ولم تكن قيمًا متعاونة، في مقابل منظومة قيم "المقاومة"؛ التي يجب تثمينها وتغذيتها مؤسساتيا، مثل نكران الذات والتضحية والانضباط والالتزام والصدق والنزاهة، اذ رغم تفعيل البعض منها في الموجة الأولى للوباء من قبل بعض الأفراد والمؤسسات والفئات الاجتماعية المدنية، إلا أن آثارها كانت ايجابية، بدليل أن تمكنت البلاد في الموجة الأولى، من إدراك مستوى صفر حالة إصابة جديدة حسب تصريحات وزارة الصحة، وذلك في حدود أربعة أشهر ودون تدخل للوسائل البيو-طبية مثل اللقاحات.

قائمة المراجع

- اسماعيل، منال. (2020). الكشافة التونسية تتصدى للكورونا. https://jamaity.org/2020/04/
- بالريانة، شهاب.(2020). كيف استجاب وتفاعل النظام الصحي التونسي مع الوباء؟. الأنظمة الصحية، الرعاية الاجتماعية والعدالة الصحية – المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات . تونس(carep.tn)
- باومان، زيجمونت. (2017). الخوف السائل. حجاج. أبو حبر،(تر.). بيروت : الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- بن جازية، طارق.(2020) " التوجّهات الاستهلاكية للتونسيين خلال فترة الوباء و ظاهرة الاحتكار و اللهفة، "كيف عاش التونسيون وباء كورونا و الحجر الصحي" – المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات . تونس(carep.tn)
- بنزرت /مقبرة حي الجلاء : اسباب رفض اهالي ومتساكني حي الجلاء دفن المراة المتوفية بالكورونا. (2020). https://www.facebook.com/watch/?v=540211889966140

- بنزرت : احتجاجات الأهالي عند عمليّة دفن ... رئيس البلديّة يوضح. (2020). https://baladianews.com/2020/04/01/بنزرتإحتجاجات-الأهالي-عند...
- بورديو، بيير. (2004). التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول. الحلوجي، درويش. (تر.). دمشق : دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الاعلامية.
- بولعراس، هناء. (2020). https://jamaity.org/2020/06/فالصو،-منصة-رقمية-لمكافحة
- بيك أولريش. (2009). مجتمع المخاطرة. كتورة جورج والشعراني الهام (تر.)، المكتبة الشرقية، بيروت لبنان
- التريكي، غيث .(2020). الشباب التونسي هو الحل وليس المشكل، https://jamaity.org/2020/04/30
- التريكي، غيث. (2020). الهلال الأحمر التونسي جنود الإنسانية، https://jamaity.org/ ،
- تشومسكي، نوعام. (2000). الربح فوق الشعب الليبرالية الجديدة والنظام العولمي. الحسين،ي مازن(تر.). رام الله : دار التنوير للترجمة والطباعة والنشر.
- تشونغ هيلير. فيروس كورونا: كيف أثر كوفيد 19 على الأحداث السياسية في عام 2020؟ - BBC Newsعربي https://www.bbc.com/arabic/world-55460532
- التعليم في أزمة: فيروس كورونا شل حركة العالم، والأطفال الأفقر والأضعف هم الأكثر تضررا. (2020) https://news.un.org/ar/story/2020/12/1068232
- تي-هول، ادوارد. (2007). البعد الخفي . فؤاد اليحيى، لميس(تر.). بيروت : الأهلية للنشر والتوزيع.
- الحسيني ، ليليا. (2020). تونس تعيش أزمة في فضاء التعليم الرقمي في زمن كورونا | سكاي نيوز عربية (skynewsarabia.com)

- حنين، ماهر.(أفريل 2020). سوسيولوجيا الهامش في زمن الكورونا الخوف، الهشاشة، الانتظارات. تونس: المنتدى التونسي للحقوق الإقتصاديّة و الإجتماعيّة. https://ftdes.net/rapports/socio.marge.pdf
- خلفاوي ، حمزه. (2020). بادرة تطوعية: شباب يصلحون أسرة كانت مهملة ويسلمونها لمستشفى ابن الجزار بالقيروان . https://radiosabrafm.net/amp/articles/badrt-ttw-yt-shbab-yslhwn-asrt-kant-mhmlt-wyslmwnha-lmstshfa-abn-al-jzar-balqyrwan
- خليل مفيدة (2020). الفن زمن الحجر: هل أتاك صوت من صنع من الأزمة ابداعا ؟ https://ar.lemaghreb.tn/ثقافة-و-فنون-item/42980/الفن-التشكيلي
- روسو، جان جاك. (2004). في العقد الاجتماعي أو مبادئ الحق السياسي. الجلاصي، عمار و الأجنف علي(تر.). تونس : دار المعرفة للنشر.
- زووم تونيزيا. www.zoomtunisia.net/article/49/87787.html
- سحبون، أسماء. (2020). كورونا : كواليس أسبوع من الحجر الصحي في مصنع القيروان (صور). كورونا-كواليس-أسبوع-من-الحجر-الصحي-في-مصنع-القيروان-صور https://www.alchourouk.com/index.php/article
- السعيداني منير، ثالوث مستقبل التغيير: الجائحة والرعاية والعدالة، مجلة الديمقراطية ، ملف العدد: عالم ما بعد كورونا: اتجاهات التغيير. العدد 89 .يوليو 2020، صص 3 – 5. (18)ثَالُوثُ مُسْتَقْبَلِ التَّغْيِير: الجائحة والرعاية والعدالة Mounir | SAIDANI - Academia.edu
- سميث، آدم. (2007). ثروة الأمم. زينة حسن(تر.). بغداد، بيروت : معهد الدراسات الاستراتيجية.
- شراك، أحمد.(2020). كورونا والخطاب مقدمات ويوميات.، فاس: مؤسسة مقاربات للصناعات الثقافية واستراتيجيات التواصل

- الصالحي، رشاد. (2020). الكاف: إيقاف معتمد قلعة السنان. https://www.hakaekonline.com/article/117768/الكاف-إيقاف-معتمد-قلعة-السنان
- عزعوزي تقوى. (2020). تونس : أكثر من 80 بالمائة من التلاميذ لا يمكنهم متابعة الدروس عن بعد . في تونس الرقميّة. تونس : أكثر من 80 بالمائة من التلاميذ لا يمكنهم متابعة الدروس عن بعد – تونس – أخبار تونس(tunisienumerique.com)
- العوسجي، ادريس. (2020). تونس و كوفيد-19 - أزمة إقتصادية غير مسبوقة و اثار إجتماعية كارثية. https://www.babnet.net/festivaldetail-204675.asp
- غانمي منية. (2020). صفقة كمامات مشبوهة في تونس.. وزير ونائب في عين العاصفة . https://www.alarabiya.net/north-africa/2020/04/18/-...وزير ونائب في عين العاصفة. صفقة-كمامات-مشبوهة-في-تونس-وزير-ونائب-في-عين-العاصفة
- فروم، اريك.(2007). الانسان من أجل ذاته : بحث في سيكولوجية الأخلاق. منقذ الهاشمي، محمود(تر.). دمشق : منشورات وزارة الثقافة.
- فروند ،جوليان. (1998). سوسيولوجيا ماكس فيبر. بيروت. مركز الانماء القومي
- فلوري، لوران و فيبر ماكس. (2008). سلسلة نصوص، مقلد محمد علي (تر.). بيروت. دار الكتاب الجديد المتحدة
- فياض حسام الدين، محمود. (2018). نظرية الفعل الاجتماعي عند ماكس فيبر: دراسة في علم الاجتماع التأويلي. [د.م] : مكتبة نحو علم اجتماع تنويري
- فيبر، ماكس، (2011). مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، هلال صلاح (تر). القاهرة : المركز القومي للترجمة
- كابان، فيليب و دورتيه جان فرانسوا. (2010). علم الاجتماع من النظريات الكبرى الى الشؤون اليومية . حسن، إياس (تر) . دمشق. دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع.

- كابان، فيليب، دورتيه جان فرانسوا. (2010). علم الاجتماع. حسن إياس (تر) . دمشق. دار الفرقد
- كابفيرير، جان نويل.(2007). الشائعات الوسيلة الاعلامية الأقدم في العالم. بيروت : دار الساقي.
- كنيب، كيرستن، ملوك، إيمان. (2021). مكافحة-كورونا-في-تونس-رهن-الحسابات السياسية https://www.dw.com/ar/
- مجاز الباب : عدد من الأهالي يرفضون دفن متوفي بكورونا . (2020). https://tunisnow.tn/مجاز-الباب-عدد-من-الاهالي-يرفضون-دفن...
- المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات. (2020). " كيف عاش التونسيون وباء كورونا و الحجر الصحي" – المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات . تونس(carep.tn)
- المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات. (2020). "الأنظمة الصحية، الرعاية الاجتماعية والعدالة الصحية"" – المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات . تونس (carep.tn)
- المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات. (2020)."المجتمع المدني في مواجهة الجائحة و أسئلة التضامن" – المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات . تونس(carep.tn)
- المشهداني، محمد عبد الفتاح. (2012). دراسة سوسيولوجية في انتشار الأمراض. مجلة جامعة تكريت للعلوم. مج 19. (ع4).
- منظمة الصحة العالميّة. (2020). الإجراءات الحاسمة الأهميّة للتأهب والإستعداد والإستجابة لكوفيد-19.
- https://apps.who.int/iris/bitstream/handle/10665/336373/WHO-COVID-19-Community_Actions-2020.5-ara.pdf?sequence=10&isAllowed=y

- مؤسسة الأهرام، ملف العدد : عالم ما بعد كورونا : اتجاهات التغيير. مجلة الديمقراطية، ، العدد 79 يوليو 2020
- هوفر، ايريك. (2010). المؤمن الصادق أفكار حول طبيعة الحركات الجماهيرية، القصيبي، غازي بن عبد الرحمان (تر) . أبو ضبي : هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة
- وناس، المنصف. (2010). الشخصية التونسية محاولة في فهم الشخصية العربية. أريانة: الدار المتوسطية للنشر.
- Audgard, C. (1999). Anthologie historique et critique de l'utilitarisme. Paris : PUF.
- Brèchier, P. (2000). Les grand courants de la sociologie . Paris : PUF
- Ewald, F. (1996). Histoire de l'État-providence : les origines de la solidarité. Paris : Le Livre de Poche Grasset et Fasquelle. Histoire de l'Etat providence. Les origines de la solidarité (numilog.com)
- Gaudard , P. y.(2010). Suggestion de l'idée de mort chez marcel mauss. catatonie mortelle aigue, phobie et nodalités symboliques, .4 N 39 pp 42-48
- Morin, E. (1968). Pour une sociologie de la crise. In: Communications, 12, 1968. Mai 1968. La prise de la parole. P 5 . https://www.persee.fr/doc/comm_0588-8018_1968_num_12_1_1168
- Morin, E. (1994). Sociologie, Fayard
- Peretti-Watel, P& Châteauneuf-Malclès, A. 2020). Sociologie du risque et crises sanitaires : un éclairage sur la pandémie du coronavirus — Sciences économiques et sociales (ens-lyon.fr)
- Weber, M. (1995), Economie et société, les catégories de la sociologie. [s.l] : Pocket